

شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَام

عناصر الموضوع

٣١٤	التعريف بشعيب عليه السلام
٣٢١	ذكر شعيب عليه السلام في القرآن
٣٢٢	معجزة شعيب عليه السلام
٣٢٥	معالم دعوة شعيب عليه السلام
٣٣٢	موقف قوم شعيب عليه السلام منه
٣٣٧	عاقبة قوم شعيب عليه السلام
٣٤٢	الدروس المستفادة من قصة شعيب

التعريف بشعيب عليه السلام

أولاً: اسمه ونسبه:

هو نبي الله شعيب عليه السلام، وشعيب تصغير شعب أو شعب بكسر الشين وفتحها^(١). وقيل: هو اسم مرتجل، وهو ابن نويلي أو نويب بن رعويل بن عيفا بن مدين : ومدين هو ابن إبراهيم عليه السلام^(٢).

وقد اختلف المفسرون في الذي زوج ابنته موسى عليه السلام، فبينما يرى جمع أنه ليس هو شعيب النبي، ويجزم ابن عاشور بأنه هو، وأن موسى قد تزوج ابنته المسماة صفوره^(٣). وإلى مثله ذهب الدكتور عبد الكريم زيدان حيث قال: (أرسل الله تعالى رسوله شعيباً إلى مدين، ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّكَاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣].

وقال: وهم أصحاب الأيكة، فدعاهم شعيب عليه السلام إلى عبادة الله وحده^(٤). وهذا فيه نظر؛ فإن موسى قد جاء بعد شعيب عليهما السلام بعشرات السنين^(٥). وقد فصل الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى هذه المسألة في رسالة خاصة بقصة شعيب عليه السلام، فبعد أن نقل الأقوال عن كتب التفسير وغيرها قال: فهذه كتب التفسير التي تروي بالأسانيد المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين لم يذكر فيها عن أحد أنه شعيب النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن نقلوا بالأسانيد الثابتة عن الحسن البصري أنه قال:

- (١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٤٨/٧.
- (٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٤٠٧/١ ذكر أولاد إبراهيم الخليل عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، ونقل عن محمد بن إسحاق أنه شعيب بن ميكيل بن يشجر، قال: واسمه في السريانية: يثرون. انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٧٠/٢.
- وذهب إلى هذا الدكتور أحمد الكبيسي في كتابه القصص القرآني ص ١١١ حيث قال: إنه الابن الرابع لإبراهيم عليه السلام وقد تزوج مدين من ابنة لوط عليه السلام فكثر الله نسله.
- وقد شكك الدكتور فضل عباس رحمه الله تعالى في كون مدين ابناً لإبراهيم عليه السلام، وقال ص ٤٥٤ في كتابه قصص القرآن: إن القضية تحتاج إلى تحقيق تاريخي، لذا فإنني لا أستريح إلى ما رجحه صاحب المنار رحمه الله، لكنني لا أجزم برأي؛ لأن الجزم يحتاج إلى تحقيق، وذكر بأن إبراهيم قد رزق إسماعيل وإسحاق عليهم السلام على كبر، فمتى تزوج هذه المرأة، وولدت له هذا العدد من الأولاد؟ أقول: وقد نقله رشيد رضا عن الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات كما سيأتي.
- (٣) انظر: التحرير والتنوير ٨/٢/٢٤٠.
- (٤) انظر: المستفاد ٢٣٧/١.
- (٥) انظر: القصص القرآني، الخالدي ص ١١.

يقولون : إنه شعيب ، وليس بشعيب ، ولكنه سيد الماء يومئذ^(١) .

فالحسن يذكر أنه شعيب عمن لا يعرف ، ويرد عليهم ذلك ، ويقول : ليس هو شعيب ، وإن كان الثعلبي قد ذكر أنه شعيب فلا يلتفت إلى قوله ؛ فإنه ينقل الغث والسمين^(٢) .

فمن جزم بأنه شعيب النبي فقد قال : ما ليس له به علم وما لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة ولا عمن يحتج بقوله من علماء المسلمين ، وخالف في ذلك ما ثبت عن ابن عباس والحسن البصري ، مع مخالفته أيضاً لأهل الكتابين ، فإنهم متفقون على أنه ليس هو شعيب النبي ، فإن ما في التوراة التي عند اليهود والإنجيل الذي عند النصارى أن اسمه يثرون ، وليس لشعيب النبي عندهم ذكر في التوراة .

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن شعيباً كان عربياً ، بل قد روي عن أبي ذر مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم رواه أبو حاتم وغيره : (أن شعيباً كان عربياً ، وكذلك هود وصالح)^(٣) .

وموسى كان عبرانياً ، فلم يكن يعرف لسانه ، وظاهر القرآن يدل على مخاطبة موسى للمراتين وأبيهما بغير ترجمان^(٤) .

وذكر القرطبي أن اسم شعيب بالسريانية بيروت ، ونقل أقوالاً في نسبه ، واختلافاً في اسم أبيه ، وكذا فعل الشوكاني وغيرهما من المفسرين ، ولستنا بحاجة إلى الوقوف عند هذا طويلاً ، مع أن الكثيرين عدوه من ولد مدين بن إبراهيم عليهم السلام^(٥) .

وبعد أن نقل رشيد رضا رحمه الله تعالى ما في الأسفار من أقوال في اسمه ونسبه قال : وأما علماؤنا فقال بعضهم كأبي عبيدة من حملة اللغة والبخارى من المحدثين والمؤرخين : إن مدين بلد^(٦) .

وإن قوله تعالى : ﴿وَالْإِنَّمَاءِ﴾ فيه حذف المضاف : إلى أهل مدين ، وهو غلط . وأما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ، ٩ / ٢٩٦٥ ، رقم ١٨٣٣ .

(٢) قال الثعلبي في الكشف والبيان ٧ / ٢٤٤ : فقال مجاهد والضحاك والسدي والحسن : هو شعيب النبي صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء .

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه مطولاً من حديث أبي ذر رضي الله تعالى عنه ، كتاب البر والإحسان ، باب ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ ٢ / ٧٦-٧٧ ، رقم ٣٦١ ، بلفظ : (وأربعة من العرب هود وشعيب وصالح ونيك محمد صلى الله عليه وسلم) .

(٤) انظر : جامع الرسائل ١ / ٦٣ .

(٥) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٢٤٧-٢٤٨ .

(٦) انظر : فتح الباري ، ابن حجر ٨ / ٢٦٢-٢٦٣ .

شعيبٌ فقد قال النووي في تهذيب الأسماء واللغات: هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام^(١).

وقيل: إن جده يشجر بن لاوى بن يعقوب عليهم السلام، وقال الحافظ في الفتح: هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن لاوى بن يعقوب. كذا قال ابن إسحاق، ولا يثبت.

وقيل: هو شعيب بن صفور بن عنقا بن ثابت بن مدين، وكان مدين ممن آمن بإبراهيم لما أحرق.

وروى ابن حبان في حديث أبي ذر الطويل: «أربعة من العرب: هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ ومحمدٌ». فعلى هذا هو من العرب الخالص^(٢).

ولا يترتب على هذا الخلاف كبير فائدة ولا عظيم أهمية، إذ لا تأثير لذلك على ما نحن بصدد من بيان هدايات هذه القصة.

وذكر بعض المفسرين في وصفه بالضعف في قوله تعالى حكاية عن قومه: ﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١]: أنه كان ضير البصر أعمى، أو أنه كان ناحل البدن، قال ابن عطية بعد أن نقل قول من قال بذلك: وهذا كله ضعيف، ولا تقوم عليه حجة بضعف بصره أو بدنه، والظاهر من قولهم: ﴿ضَعِيفًا﴾ أنه ضعيف الانتصار والقدرة، وأن رهطه الكفرة كانوا يراعون فيه^(٣).

وقد كان شعيب عليه السلام من المرسلين المؤيدين بالمعجزة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)^(٤).

واختلف في معجزته؛ لأن الله تعالى لم يذكرها صراحة، لكنه قال على لسانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

فما هي هذه البينة؟ الظاهر أنها معجزة قامت بها الحجة عليهم لم يذكرها القرآن الكريم، كما أنه لم يذكر معجزة هود ونوح عليهم السلام.

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٤٦.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٦٧، فتح القدير ٢/ ٢٢٤، فقد نقل الشوكاني طرفاً من تلك الأقوال.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ٧/ ٣٨٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، ١١/ ١٩٣، رقم ٤٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس، رقم ١٥٢.

ونبي الله شعيب هو خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد جاء ذلك في حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن محمد بن إسحاق قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما ذكر لي يعقوب بن أبي سلمة - إذا ذكر شعيبا قال: (ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، فيما يرادهم به) ^(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال: سمعت مالكا يقول: كان شعيب عليه الصلاة والسلام خطيب الأنبياء ^(٢).

وهذه فضيلة مهمة لسيدنا شعيب عليه السلام، لاسيما في باب النصيح الذي اتسمت به دعوته، ولا يخفى ما للخطيب المفوه من قدرة على إقناع المستمعين، وإقامة الحجة على المعاندين، بحيث لا يجدون فكاكا عن أحد الأمرين، إما الإيمان به وإجابته، وإما إلزامهم بصدق دعوته.

ثانياً: قوم شعيب:

نجد في قصة شعيب عليه السلام التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم ذكر أهل مدين وأصحاب الأيكة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]. وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ^(٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُو؟ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧].

ونظرائها من الآيات.

فهل أهل مدين هم أصحاب الأيكة، أم هما قومان، وأن شعيبا عليه السلام قد أرسل إليهما؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين، فمنهم من يرى الأول، ومنهم من يرى الثاني، ولكل دليله على ما ذهب إليه، وسنختصر القول في ذلك، إذ لا يترتب على هذا الخلاف كبير ثمرة في ما نحن بصدد من عرض قصة شعيب عليه السلام، وبيان دعوته وأمانته في تبليغ رسالة ربه، فهو قد صدق في النصيح لقومه سواء كانوا أمة واحدة أم أمتين مختلفتين، فنقول:

ذهب الإمام الطبري إلى أنهما أمتان، وأن شعيبا أرسل إليهما، فكفرتا، فعذبهما الله تعالى بعدايتين مختلفتين، أهل مدين بالصيحة، وأصحاب الأيكة بالظلة ^(٣)، كذا نقله ابن عطية

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره، رقم ١٤٨٦٩، عن ابن إسحاق.

(٢) أخرجه في تفسيره، رقم ٦٦٢، ١/٣٦٣.

(٣) انظر: جامع البيان ١٧/١٢٤، وفيه: ذكر لنا أنه سلط عليهم الحر سبعة أيام، لا يظللهم منه ظل، ولا

عن الطبري وسكت عنه، فكان أنه ارتضاه^(١).

ويستفاد من كلام الرازي أنه يقول بذلك، فإنه بعد أن بين أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لِيَايَمٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩] يعود إلى أصحاب مدين والأيكة، لأن شعيبا كان مبعوثا إليهما، قال: فإن قيل: هلا قال: أخوهم شعيب، كما في سائر المواضع؟ جوابه: إن شعيبا لم يكن من أصحاب الأيكة^(٢).

وقال في تفسير سورة الشعراء: وروي أن شعيبا بعث إلى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الأيكة^(٣).

وبعد أن بين الألويسي معنى الأيكة وأنها الغيضة التي تنبت ناعم الشجر، قال: وهي غيضة من ساحل البحر إلى مدين يسكنها طائفة، وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام، وكان أجنبيا منهم، ولذلك قيل ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقل أخوهم، وقيل: الأيكة الشجر الملتف، وكان شجرهم الدوم، وهو المقل، وعلى القولين أصحاب الأيكة غير أهل مدين، ومن غريب النقل عن ابن عباس أنهم هم أصحاب مدين^(٤).

وانتصر لهذا ابن عاشور فبعد أن نقل بعض أقوال العلماء في ذلك قال: «والأظهر أن أهل الأيكة قبيلة غير مدين، فإن مدين هم أهل نسب شعيب، وهم ذرية مدين بن إبراهيم من زوجه (قطورة)، سكن مدين في شرق بلد الخليل، كما في التوراة، فاقضى ذلك أنه وجدته بلدا مأهولا يقوم فهم إذن أصحاب الأيكة، فبنى مدين وبنوه المدينة، وتركوا البادية لأهلها، وهم سكان الغيضة»^(٥).

وذكر الدكتور أحمد الكبيسي تحت عنوان رسالة جديدة: «إن الله بعد أن أهلك مدين ونجا شعيبا عليه السلام أرسله مرة أخرى إلى أصحاب الأيكة، وكان غريبا عنهم، لذا لم يقل تعالى، أخوهم شعيب، وكانت أخلاقهم كأخلاق أهل مدين من تطفيف المكيال والميزان،

يمنعهم منه شيء، فبعث الله عليهم سحابة، فحلوا تحتها يلتمسون الروح فيها، فجعلها الله عليهم عذابا، بعث عليهم نارا فاظطربت عليهم فأكلتهم، فذلك عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم.

(١) انظر: المحرر الوجيز ٣٤٥/٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب ٢٠٩/١٩.

(٣) المصدر السابق السابق ١٦٣/٢٤.

(٤) انظر: روح المعاني ١١٦/١٠.

وما نقله عن ابن عباس أخرجه ابن جرير ١٢٤/١٧ من طريق حجاج عن ابن جريج قوله: ﴿وَلَا كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَعَالِيَيْنَ﴾ قال: قوم شعيب، قال ابن عباس: الأيكة ذات أكام وشجر كانوا عليها. فقوله من قوم شعيب، من كلام ابن جريج - كما ترى - وليس من كلام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

(٥) التحرير والتنوير ١٨٣/١٩.

ويخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض»^(١).

ويستفاد من كلام الشوكاني أنهما أمة واحدة، حيث قال في تفسير سورة الحجر: وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب، وقد تقدم خبرهم، واقتصر الله سبحانه على وصفهم بالظلم، وقد فصل ذلك الظلم فيما سبق، ثم قال في عود الضمير ﴿وَإِنَّمَا﴾ بعد أن ذكر قول الجمهور أنه يعود على قوم لوط وأصحاب الأيكة، وقيل: الضمير للأيكة ومدين، لأن شعيبا كان ينسب إليهما^(٢).

وأيد هذا الدكتور صلاح الخالدي حيث قال: فالراجع أن شعيبا عليه السلام بعث إلى أهل مدين، ومدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة، وأن الله دمر مدين أصحاب الأيكة بعذاب واحد، هو الرجفة والصيحة والظلة^(٣).

ثم أيد ما ذهب إليه بالتفصيل الذي ذكره الحافظ ابن كثير، وخلص منه إلى أنهما أمة واحدة، وأنها أهلكت بأنواع من العذاب^(٤).

ومما قال ابن كثير: وإنما لم يقل ههنا: أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً، ومن الناس من لم يفتن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبا عليه السلام بعثه الله إلى أمتين^(٥).

أقول: ولعل هذا هو الراجح في هذه المسألة، ويمكن أن نفصل ذلك بأنهما أمة واحدة غير أن بعضاً منهم - وهم أهل مدين - كانوا يسكنون المدينة، وأن بعضاً آخر - وهم أصحاب الأيكة - كانوا يسكنون الغيضة، ومما يرجح أنهما أمة واحدة أن الله تعالى قد ذكر عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين - كما يقول ابن كثير - من التطفيف في المكيال والميزان^(٦).

(١) انظر: القصص القرآني ١١٥.

(٢) انظر: فتح القدير ٣/ ١٤٠.

(٣) القصص القرآني ٣٧/ ٢.

(٤) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ص ١٩٣-١٩٤.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٥٢.

(٦) انظر: المصدر السابق.

فنقرأ في سورة الأعراف قوله تعالى في نصيحة أهل مدين: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِدِلْسِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقوله تعالى في سورة الشعراء في نصيحة أصحاب الأيكة: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ (١٨١) ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ (١٨٢) ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (١٨٣) [الشعراء: ١٨١-١٨٣].

ومما يدل على أن أهل مدين هم أصحاب الأيكة : ما أخرجه الحاكم عن وهب بن منبه قال: إن الله بعث شعيباً إلى أهل مدين ، وهم أصحاب الأيكة ، فكانت الأيكة من الشجر الملتف ، وكانوا أهل كفر بالله وبخس للناس في المكايل والموازين ، وإفساد لأموالهم ، وكان الله تعالى وسع عليهم في الرزق وبسط لهم في العيش ؛ استدراجاً منه لهم مع كفرهم به ، فقال لهم شعيب: ﴿يَقُولُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ فكان من قول شعيب لقومه وجواب قومه له ما قد ذكر الله في كتابه. (١)

ونكتفي بهذا القدر فكما قلنا : إن الذي يهمنا هنا هو ما نستخلصه من الدروس والعبر والعظات من قصة شعيب عليه السلام وصدقه في نصيح قومه ، وذلك يتأتى من كونه عليه السلام مرسلًا إلى أمة واحدة أو إلى أمتين ، إذ الصدق والإخلاص حاصل في هذا وفي ذاك . والله تعالى أعلم .

[انظر: مدين: التعريف بمدين]

(١) أخرجه الحاكم رقم ٤٠٧٣ ، وسكت عنه الذهبي ٦٢٠ / ٢ .

ذكر شعيب عليه السلام في القرآن

ورد ذكر (شعيب) عليه السلام في القرآن الكريم (١١) مرة في (٤) سور.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

الآيات	السورة
٩٣-٨٥	الأعراف
٩٥-٨٤	هود
١٩١-١٧٧	الشعراء
٣٧-٣٦	العنكبوت

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

فهل هذه البينة هي المعجزة؟ أم له معجزة لم يخبرنا الله تعالى بها؟ من العلماء من يرى أن البينة المذكورة هي المعجزة، ومن هؤلاء الإمام الكسائي فيما نقله القرطبي عنه^(٣)، وابن عطية حيث قال: (والبينة إشارة إلى معجزته، وإن كنا نحن لم ينص لنا عليها)^(٤).

وبذلك جزم الرازي حيث قال رحمه الله تعالى: (ويجب أن يكون المراد من البينة ههنا المعجزة، لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، وإلا لكان متنبئاً لا نبياً)^(٥).

بينما ذهب القرطبي - بعد ما نقل عن الكسائي ما تقدم - إلى أن الله تعالى لم يذكر له معجزة في القرآن.

وأما الطبري فيرى أن البينة علامة دالة على صدقه حيث قال: «يقول: قد جاءكم علامة وحجة من الله بحقيقة ما أقول، وصدق ما أدعوكم إليه»^(٦).

وإلى نحو هذا ذهب ابن عاشور، فذكر أنها حجة أقامها على بطلان ما هم عليه من الشرك وسوء الفعل، وعجزوا عن مجادلته فيها فقامت عليهم الحجة، فهي علامة على

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٤٨.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٥٧٤.

(٥) مفاتيح الغيب ١٤/ ١٨٠.

(٦) جامع البيان ١٢/ ٥٥٥.

معجزة شعيب عليه السلام

المعجزة كما عرفها العلماء: أمر خارق للعادة سالم من المعارضة، يجريه الله تعالى على يد نبي من أنبيائه على سبيل التحدي^(١).

وهي بمثابة قول الله تعالى: صدق عبدي فيما يبلغ عني.

وما من نبي من أنبياء الله تعالى إلا أيده الله تعالى بمعجزة، تظهر صدقه وتدل على نبوته، كما تقدم في قول النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر) الحديث^(٢).

ولكننا وجدنا أن الله تبارك وتعالى قد قص علينا نبأ بعض الأنبياء عليهم السلام، ولم يذكر لنا معجزاتهم، من مثل: نوح وهود وشعيب عليهم السلام، والذي يهمنا أن نقف عنده في هذا البحث هو شعيب عليه السلام، فهل له معجزة؟ وما هي؟

لم نقرأ في قصته التي حكاها الله تعالى في كتابه الكريم على شيء من ذلك إلا

(١) انظر: الإتيان ٣/ ٤، وانظر: كبرى اليقينيات الكونية ص ٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، ١١/ ١٩٣، رقم ٤٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس، رقم ١٥٢.

صدق شعيب عليه السلام ^(١).

ولإمام الألويسي تفصيل في ذلك، فقد فسر البيه بالمعجزة، حيث قال: ﴿قَدْ جَاءَ تَكْمُ بِكِنَّةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: أي: معجزة عظيمة ظاهرة من مالك أموركم، وقال: ولم تذكر معجزته عليه السلام في القرآن العظيم كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم والأنبياء عليهم السلام فيه، ثم بين غلط من ذهب إلى أن شعيبا لم تكن له معجزة وعلل ذلك بأن الفاء في قوله سبحانه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ لترتيب الأمر على مجيء البيه، وقال: واحتمال كونها عاطفة على (اعبدوا) بعيد، وإن كانت عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر بالبخل، فكأنه قيل: قد جاء تكم معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجب عليكم الإيمان بها والأخذ بما أمرتكم به، فأوفوا.. إلخ.

ودلل على ذلك بأنه لو ادعى مدع النبوة بغير معجزة لم تقبل منه، لأنها دعوى أمر غير ظاهر، وفيه إلزام للغير، ومثل ذلك لا يقبل من غير بيته، وقال: ومن الناس من زعم أن البيه نفس شعيب. ومنهم من زعم أن المراد بالبيه: الموعظة، وأنها نفس ﴿فَأَوْفُوا﴾

إلخ، وليس بشيء كما لا يخفى ^(٢).

وقال القاسمي: «ولا يخفى أن البيه أعم من المعجزة بعرفهم، فكل من أبطلت شبهة ضلاله، وأظهرت له حجة الحق الذي يدعى إليه فقد جاءته البيه؛ لأن حقيقة البيه كل ما بين الحق فاحفظه» ^(٣).

وسكت عن هذا الدكتور فضل عباس حيث قال: «فقد جاءتهم المعجزة الدالة على صدقه عليه السلام، والقرآن لم يبين لنا نوع هذه الآية التي جاءتهم، فنسكت عما سكت عنه» ^(٤).

وإلى مثله ذهب الدكتور عبدالكريم زيدان وقال: «وإن كنا جازمين بأن الله تعالى قد أيدته بآية هي البيه التي دلت على أنه رسول من رب العالمين، وبها قامت الحجة على قومه» ^(٥).

وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر) الحديث، وقد سبق الاستدلال به ^(٦).

(٢) انظر: روح المعاني ٤/ ٤١٣.

(٣) محاسن التأويل ٧/ ٢٠٦.

(٤) قصص القرآن الكريم ص ٤٥٥.

(٥) انظر: المستفاد ١/ ٢٣٨.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، ١١/ ١٩٣، رقم ٤٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس، رقم ١٥٢.

(١) انظر: التحرير والتنوير ٨/ ٢٤١.

بمجرد عجزهم عن مجادلته ففيه نظر، إذ لو كان ذلك كافيا في إثبات نبوته، لثبت نبوة كثيرين، فكم من صاحب دعوى يعجز الآخرون عن مقارعة حجته!! والله تعالى أدرى بأسرار كلامه.

والدكتور الخالدي فقد اكتفى بقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ المراد بالبينة هنا الآية والدليل والبرهان، على أن شعيبا عليه السلام هو رسول الله إليهم، وأنه يجب عليهم اتباعه^(١).

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر المعجزة بعد ذكر البينة، كما في قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وفي قصة موسى عليه السلام: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٠٥) إلى أن قال: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (١٠٧) [الأعراف: ١٠٥-١٠٧].

أقول: ولعل الراجح في هذه المسألة، قول من قال: إن في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى معجزة شعيب عليه السلام، وأنها كانت آية ظاهرة لا لبس فيها ولا غموض، دالة بلا امتراء على صدق من جاء بها، والأولى أن نسكت عن الجزم بها؛ لأن الله تعالى سكت عن ذكرها، ولم يكشف عنها في كتابه الكريم، فنجزم أن شعيبا عليه السلام قد أيده الله تعالى بمعجزة، والله تعالى أعلم بها. وأما من قال: إن الحجة قامت عليهم

(١) القصص القرآني ١٥/٢.

معالم دعوة شعيب عليه السلام

أولاً: آفاق النصيحة في القرآن الكريم:

لا يخفى أن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولما علم سبحانه وتعالى أن أمور الخلق لا تستقيم، وأن تلك العبادة لا تتحقق بدون أن يكون هناك تعليم منه وإرشاد، أرسل الرسل وأنزل الكتب، وبذلك قامت حجة الله على عباده.

ولفظ النصح ومشتقاته من الألفاظ الدائرة في الكتاب العزيز، فقد ورد على ألسنة جمع من خلق الله تعالى، من ذلك إحدى عشرة آية جاءت على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مما يدل على أهمية النصيحة في حياة كل أمة.

وقد كان من أولى مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام أن ينصحوا أممهم، ويدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، وقد ساروا جميعاً في هذا الطريق غير مباين بما أصابهم في سبيل ذلك من نكبات، وما اعترضهم من عقبات، مبلغين رسالات ربهم على أتم وجه وأكملها، حتى ختمت تلك الرسالات بمسك الختام، سيدنا ونبينا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، ذلك النبي الخاتم الذي جاء بالكتاب العظيم

الخاتم، (فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم)^(١). وقد حكى الله تعالى لنا فيه نصح الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم، فمن ذلك ما حكاه الله تعالى عن نوح عليه السلام في نصح قومه: ﴿أَتْلَفَكُمْ بِرِسَالَتِي ربي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

ومثله قول هود لقومه: ﴿أَتْلَفَكُمْ بِرِسَالَتِي ربي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي من حديث الحارث الأعور عن علي رضي الله عنه، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن ٥/١٧٢، رقم ٢٩٠٦. والحديث وإن كان في سنده مقال، إلا أن الوصف صادق، وهو بتمامه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ألا إنها ستكون فتن). فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: (كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ إِلَهُهُ إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ٢]. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم (خذها إليك يا أعور. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال.

وقول صالح: ﴿يَقَوْمٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقول شعيب: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آمَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

والنصيحة: من نصح ينصح نصحا ونصاحا ونصاحية، وهو ناصح ونصيح، والاسم النصيحة، فالنون والصاد والحاء - كما يقول ابن فارس - أصل يدل على الملازمة بين شيئين وإصلاح لهما، وهي خلاف الغش، ونصحت له ونصحته بمعنى^(١).

وفي الصحاح: وهو باللام أفصح، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾^(٢). وقال الزجاج: وفي الكلام: نصحت لك أكثر من نصحتك^(٣).

فأصل النصح في اللغة: الخلوص، فالنصيحة: كلمة يعبر بها عن جملة، هي إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر هذا المعنى بكلمة واحدة تجمع معناه غيرها^(٤).

وهي الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عما فيه الفساد، والنصح: إخلاص العمل عن شوائب الفساد^(٥). قال الأصمعي: الناصح الخالص من العسل وغيره مثل الناصع، وكل شيء خلص فقد نصح^(٦).

وقد كثرت أقوال العلماء في تعريفها وبيان حقيقتها، وخلاصة ذلك أنها: إرادة الخير للمنصوح والإخلاص في ذلك.

وإذا علمنا أن النصح يعني الإخلاص والصدق والنقاء وأنه نقيض الغش، كما تقدم في المعنى اللغوي، فقد كان الأنبياء عليهم السلام كلهم كذلك.

وقد حدثنا القرآن الكريم أنهم أخلصوا النصح لقومهم في آيات بينات واضحات، تقدم ذكر بعضها، فلم يكن شعيب عليه السلام بدعا من الرسل في ذلك، لقد بذل جهده في نصح قومه، لاسيما وأنه خطيب الأنبياء عليهم السلام، ولا يخفى ما للخطابة من ميزة في حسن العرض وجودة التعبير، مما يكون أثر بالغ في إيصال المقصد الأعظم من الرسالة.

فقد أدى المهمة التي أرسل من أجلها على أتم وجه وأكمل.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤٣٥/٥،

القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٥٠٠.

(٢) الصحاح، الجوهري ٤١٠/١.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه ١٣٨/٤.

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٦٣/٥.

(٥) التعريفات، الجرجاني ص ٣٠٩.

(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ٤١١/١.

ثانيًا: الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته.

إن الإيمان بالله تعالى وتوحيده وإفراده بالعبادة، مقصد مهم من مقاصد خلق الإنسان، ذاك أن الله تعالى هو الذي أنعم على هذا الإنسان وأخرجه بفضل من العدم، ولأهمية العبادة في حياة الإنسان، فقد توجه ربنا تبارك وتعالى بنداء جميع خلقه، وأمرهم بذلك بلا استثناء، فإنه بعد أن ذكر أصناف الناس في صدر سورة البقرة، أردف ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

«والإيمان لغة: التصديق، وشرعًا: تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه»^(٢).

«والإيمان بالله تعالى هو التصديق القاطع الجازم بوجود الله تعالى، كما أخبر سبحانه وتعالى به، واطمئنان القلب وسكون النفس إلى ذلك، بحيث لا يبقى في القلب أدنى مرض وظلمة، ولا في العقل أقل شبهة أو ريب في وجود الله جل جلاله ووجوب الإيمان به سبحانه، فلو زالت الجبال من مواضعها ما زال إيمان المؤمن عن قلبه، ولو ضل الناس عن الإيمان به سبحانه ثبت هو

مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ [الأنعام: ٤٨-٤٩].

وهكذا صنع شعيب عليه السلام مع قومه، كما أنهم كانوا فريقين تجاه دعوته، ﴿وَلِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

لقد اشتمل نصيح شعيب عليه السلام لقومه على دروس متعددة، وفيه عبر وعظات متنوعة، تستفيد منها الأجيال على مر الدهور وتعاقب العصور، فقد كان نصيحا صادقا، صادرا من مخلص مستجمع لما يجب أن يكون عليه الناصحون، ومن حكم الشعر^(١):

فما كل ذي نُصْحٍ بمؤْتِيكَ نُصْحَهُ
ولا كل مُؤْتٍ نُصْحَهُ بلييب
ولكن إذا ما استجمعا عند صاحب
فحق له من طاعة بنصيب
فكان حريًا بقومه أن يسمعوا ويطيعوا، ولكن أغلبهم كان على خلاف ذلك، وهكذا هو شأن من لا يحبون الناصحين.

(١) انظر: ديوان أبي الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو بن سفيان ص ٦.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ١/ ١١٢.

على إيمانه»^(١).

فقوله: «ما جاء به عن ربه»، ومثله «كما أخبر سبحانه وتعالى به»، يخرج ما كان عليه المشركون من الاعتراف بوجود الله وإشراكهم غيره معه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

«والإيمان بالله عز وجل أساس مسائل العقيدة كلها، وعنه تنفرع بقية الأمور الاعتقادية التي يجب إنهاض العقل للتأمل فيها، ثم الإيمان بها، وبتعبير آخر نقول: إن ما تراه من حقائق الكون كلها، إنما هو فيض عن حقيقة واحدة كبرى، ألا وهي ذات الله عز وجل، ومن المحال أن تدرك ما هية الحقائق المتفرعة الصغرى قبل أن تدرك منبعها وأصلها الأول، فكان لابد إذاً لكي تستطيع التعرف على الكون من أن تعرف خالقه أولاً»^(٢).

ومن هنا فإن الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده وإفراده بالعبادة، كانت من أبرز مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهي سمة ظاهرة، وقد مر مشترك بين جميع الأنبياء من لدن آدم إلى محمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين، فقد كانت هذه الدعوة من الألفاظ الدائرة في الكتاب العزيز على لسان الأنبياء جميعاً، من ذلك قوله

تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥] ونظائرها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

ولدى تتبع ما جاء عن شعيب عليه السلام في الكتاب الكريم، نجد أن لنصح شعيب دعائم يقوم عليها، وهي جملة من الأوامر والنواهي، تنظم لقومه شؤون حياتهم في الدنيا على أمن وسلام وطمأنينة، وتكفل لهم سعادة ونجاة وفوزاً في الحياة الآخرة، وإن من أهم تلك الدعائم: توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

وعند تأمل هذه الدعامة في قصة شعيب عليه السلام، نجد أنها جاءت متعددة متنوعة في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم، ففي سورتي الأعراف وهود وردت بلفظ: ﴿قَالَ يَنْفَقِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥] و [هود: ٨٤].

وفي سورة الشعراء وردت بلفظ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُوهَ﴾ (٣٧) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٣٨) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٣٩) [الشعراء: ١٧٧-١٧٩].

وفي سورة العنكبوت وردت بلفظ: ﴿فَقَالَ يَنْفَقِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

ويلاحظ أن شعيباً عليه السلام قد ابتدأ الدعوة بالإيمان؛ لأن به صلاح الاعتقاد

(١) أركان الإيمان، وهي غاوي ص ١٣.

(٢) كبرى اليقينيّات الكونية ص ٧٧.

يرجى منها الخير في الدارين^(٤)، فمن آمن بالبعث وباليوم الآخر صح رجاؤه^(٥).

ثالثاً: إقامة القسط في الكيل والميزان:

إن من أهم مقاصد رسالة شعيب عليه السلام ومن أبرز أهدافها بعد الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة: تصحيح ما كان عليه قومه من تطفيف الكيل والميزان، بل إن الدعوة إلى إقامة القسط في الكيل والميزان مما تميز به شعيب عليه السلام، وهو ظاهر في دعوته، بل هو أظهر شيء وأهمه بعد التوحيد كما ذكرنا.

وفي هذا يقول الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ^(١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ^(١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ^(١٨٣)﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣].

ونظائرها من الآيات التي تحدثت عن قصة شعيب مع قومه.

لقد كان هذا الخلق السيء ديدن قوم شعيب، وقد كان ذلك أمراً مألوفاً عندهم، لا يرون فيه بأساً ولا غشاضة، به طبعوا، وعليه درجوا، ولذا فقد رفضوا دعوة شعيب هذه، وقابلوها بالإعراض والإنكار، فقالوا ما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ

والقلب، وإزالة الزيف من العقل^(١)، وذلك أمر مهم لتلقي ما بعده.

وآيتا الأعراف وهود صريحتان في الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، وتأتي الآيات في سورة الشعراء، مكملة لذلك بالدعوة إلى تحقيق التقوى والطاعة المطلقة لله ولرسوله شعيب عليه السلام، وذلك شامل للرسالة كلها، ذاك أن التقوى على مراتب أدناها اتقاء الشرك بالله، ثم امتثال الأوامر واجتناب النواهي^(٢).

وأما آية العنكبوت فنجد فيها التذكير باليوم الآخر: ﴿يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

ذاك لأن العبادة هي سر وجود الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ^(٣)﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن ضيع سر وجوده فقد ضاع منه كل شيء، ومن حكم الشعر:

لكل شيء إذا ضيعته عوض

وليس لله إن ضيعت من عوض
وأمره إياهم بأن يرجوا اليوم الآخر يدل على أنهم لم يكونوا مؤمنين بالبعث، لأن المراد بالرجاء هنا: الترقب واعتقاد الوقوع في المستقبل^(٣)، ولأن عبادة الله تعالى

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤١/٨.

(٢) انظر: دعائم السلوك الأمثل ص ٧١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٤٧/٢٠.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦٦/٢٥.

(٥) انظر: المحرر الوجيز ٣٨٨/١١.

أَصْلُوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ ءَابَاؤُنَا
أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيْ أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوِيْ أَنَّهُ لَأَنْتَ
الْحَلِيْمُ الرَّشِيْدُ ﴿٨٧﴾ [هود: ٨٧].

وقولهم: ﴿أَنْتَ لَأَنْتَ الْحَلِيْمُ الرَّشِيْدُ﴾
قالوه على طريق الاستهزاء، فهم ينكرون
على شعيب منعه لهم عن التطفيف؛ لأن
تلك أموالهم فهم يفعلون بها ما يشاءون!
والبخس هو النقص في آلة الكيل
والوزن، وهو جرم اجتماعي، ويكون في
السلعة بالتعيب والتزهد فيها، أو المخادعة
عن القيمة، والاحتيال في التزيد في الكيل
والنقصان منه - كما يقول القرطبي - وكل
ذلك من أكل المال بالباطل، وذلك منهي
عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة
الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم،
وحسبنا الله ونعم الوكيل^(١).

ودعامة إقامة القسط في الكيل والميزان
دعامة هامة جدًا في تماسك النظام
الاقتصادي، وإن الإخلال بها يؤدي إلى
اضطراب في المجتمع، ويفقده الأمن
والاستقرار، وبه تظهر الطبقية والاستبداد،
وعن طريقه تؤكل أموال الناس بالباطل، ولذا
فقد جاءت شريعتنا - وهي شريعة الكمال -
أمرة بما أمر به شعيب عليه السلام، فقال
تعالى في الوصايا العشر في أواخر سورة
الأنعام: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ

لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا الْوُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والملاحظ أن هذه الوصية أدرجت ضمن
وصايا عظيمة، ابتدأها ربنا بالنهي عن الشرك
والأمر ببر الوالدين، وبذلك تدرك موقع هذه
الوصية ومدى خطورتها، ولا يخفى أن من
أسباب عاصفة الأزمة الاقتصادية التي مرت
بالناس هذه السنوات اختلال ميزان العدل
الذي وضعه الله تعالى لعباده.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَةَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَقْضُوا فِي الْمِيزَانِ
﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا
الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٧-٩].

والأمر والنهي هنا شامل للبشرية جمعاء،
ذاك أن رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم عامة
شاملة، ولا شيء عند الله تعالى أقبح من
الظلم، ولذا فقد حرمه على نفسه سبحانه
وتعالى، كما في الحديث القدسي عن النبي
صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله
تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت
الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا
تظالموا) الحديث^(٢).

لقد أوضح شعيب عليه السلام لقومه
كيفية بناء الاقتصاد السليم، على أسس من
الرزق الحلال، وترك المحرمات التي نهانا

(٢) وهو حديث طويل، أخرجه مسلم في
صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم
الظلم، ١٧/١٢٤-١٢٥، رقم ٢٥٧٧، عن
أبي ذر رضي الله عنه.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٤٨.

الذنب الوحيد الذي كان عليه قوم شعيب عليه السلام بعد الشرك بالله، بل ثمة ذنوب أخرى لا تقل جرماً عن ذنب التططيف، لقد كان التططيف والبخس والإفساد في الأرض، والصد عن سبيل الله أموراً متلازمة، يقوم بها قوم شعيب عليه السلام، وكلها أمراض خطيرة، متى ما استشرت في قوم أفسدتهم، وألحقت الدمار بهم، ولذا فقد حذر شعيب الشفيق على قومه من مغبة ذلك، وبالحق في النصيح لهم، وأمرهم بالكف عن هذه المساوئ.

قال تعالى على لسانه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ثَوْعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا [الأعراف: ٨٥-٨٦].

والفساد -كما يقول الراغب- خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة، يقال: فسد فساداً وفسوداً، وأفسده غيره^(٣).

فهي إذًا كلمة جامعة لصنوف الشر، فشملت الصد عن سبيل الله تعالى، والسلب

الله عز وجل عنها، ومن ذلك نستفيد في بناء اقتصادنا العملي -كما يقول الدكتور نواف الحليسي- بأن نبتعد عن كل ما نهى الله تبارك وتعالى عنه على ضوء تاريخنا الاقتصادي من خلال قصة شعيب عليه السلام، وبذلك تتضح لنا القواعد الأساسية في حياتنا الاقتصادية^(١).

وأعلمهم بأن قليل الحلال خير وأعظم بركة من كثير الحرام، دل على هذا قوله تعالى: ﴿يَقِينُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦].

فكم جر الحرام على أصحابه من نكبات وويلات، ومن يقف على بعض دواعي الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالعالم هذه الأيام يدرك سر ذلك.

وإن نصيح شعيب عليه السلام ليعد الدرس الأول في الاقتصاد التطبيقي من ناحية الوزن والكيل، الذي يؤثر في حياة الناس اليومية، وتعاملهم الاقتصادي والمالي والتجاري في مختلف المجالات التي تحتاج إلى إيفاء من الكيل والميزان، كي تستقيم المعاملات بين الناس^(٢).

رابعاً: النهي عن الفساد في الأرض:

لم يكن تططيف الكيل والميزان هو

(١) انظر: المنهج الاقتصادي في المكايل والموازين لنبي الله شعيب عليه السلام ص ١٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٠-٢١.

(٣) مفردات القرآن ص ٦٣٦.

موقف قوم شعيب عليه السلام منه

أولاً: التكذيب والاستهزاء:

لقد أخلص شعيب عليه السلام النصيح لقومه كما تقدم، ومن أهم ذلك أن ذكرهم بنعم الله تعالى، وأمر هذه الدعامة عظيم، ذاك لأن الشكر سبب مهم في دوام النعم وازديادها، كما أن الكفر سبب في انمحاقها واضمحلالها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد كان قوم شعيب عليه السلام في نعمة سابغة، لاسيما نعمة الأولاد الذين كثروا بهم بعد قلة، فخشي عليهم زوال تلك النعمة بما كانوا عليه من الاعوجاج والكفر والطغيان، فقال لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ومن المعلوم أن الشكر ليس قولاً باللسان، إنما يقوم على دعامين هما: نسبة النعم إلى المنعم جل جلاله، والاجتهاد في استعمالها في طاعته.

فما كان من قومه بعد هذا النصيح والتذكير إلا أن يقابلوه بالسخرية والاستهزاء، وتكذيبه فيما جاء به من ربه، بل واتهموه بالسحر، تلك التهمة التي لم يسلم منها نبي من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، قال

وقطع الطريق، وأكل أموال الناس بالباطل، فقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ نهي عام عن دقيق الفساد وجليله - كما يقول ابن عطية - وكذلك الإصلاح عام^(١)، فكل أعمالهم التي نهاهم شعيب عليه السلام عنها كانت من الفساد في الأرض، فهي شاملة لإفساد نظام المجتمع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل، وإفساد الأخلاق بارتكاب الفواحش، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام^(٢)، وكل ذلك مما يمقته الله ولا يحبه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرط لحصول الخير والنفع الذي وعدوا به، وإلا فلا ينفع عمل دون إيمان^(٣)، ومن هنا ندرك سر ابتداء شعيب عليه السلام تبليغ رسالة ربه بالدعوة إلى الإيمان والتوحيد كما تقدم، كما هو شأن سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

(١) انظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٧٤.

(٢) انظر: التفسير المنير ٨/ ٢٨٨.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ٥/ ٥٧٤.

بَعْدَ إِذْ بَخَسْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩].

ويلاحظ هنا تفويض شعيب الأمر إلى الله، حيث قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾، وفي هذا إشارة إلى أن الأمر كله لله، إنه ليس ثمة خلود إلى الرجاء، ولكنه المزج بينه وبين الخوف، ثم يعلن عن اعتماده على الله تعالى وحده، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، إنه التوكل الصادق، بعيداً عن العجب والغرور، إنه التعويل على فضل الله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

هكذا كان شعيب عليه السلام وأتباعه، إنهم يعولون على فضل الله، غير متعلقين بشيء سواه.

ثم ما كان من شعيب عليه السلام بعد أن استنفذ كل ما يمكنه من وسائل النصيح إلا أن يتوجه إلى الله تعالى ويصدق في اللجوء إليه، ويطلب الإغاثة منه بأن يفصل بينه وبين قومه الذين أصرروا على العناد، فقال: ﴿رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وذلك بعد أن تبجح قومه فقالوا: ﴿لَنْ أَتَّبِعَنَّكُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ﴾، ثم زاد

تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَفَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

ومن ذلك قول قوم شعيب له عليه السلام: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٦].

وما كان من شعيب في الوقت نفسه إلا أن يقابل ذلك بالثبات على ما جاء به، والصبر على أذية قومه، وهذه سمة ظاهرة في حياة الأنبياء جميعاً، وفي مقدمتهم أولو العزم من الرسل، وعلى رأسهم سيدنا النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم عليه وعليهم أجمعين، فقد شاعت حكمة الله تعالى أن تكون هذه الحياة دار ابتلاء، وأن الكفر لم يزل يصارع الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْبَلُونَكَ حَتَّىٰ يَرْدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْطَلَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

فلم يكن شعيب عليه السلام يدعاً من الرسل في هذا، فلاقي من أذى قومه ما لاقى إخوانه الأنبياء عليهم السلام، وصبر كما صبروا.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَعِيبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّةِنَا قَالَ أُولَؤُكَ كَاكِرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ

تعتتهم وبالغوا في التكذيب والاستهزاء حتى سألو العذاب ، وقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

هنالك دعا شعيب عليه السلام ربه، فكان دعاء صادقاً، اتسم بتفويض الأمر لله، ليقضي سبحانه وتعالى بما يشاء، وهذا ما وضعه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨].

ذلك هو دعاء شعيب، لم يعرف أنه دعا بنزول عذاب معين، بل ولا حتى نزول العذاب، ولكنه أحال الأمر إلى العزيز الحكيم، فكان فتحاً مبیناً ونصراً عظيماً له ولمن آمن به، حيث قال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَضْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ۝١١ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ۝١٢﴾ [الأعراف: ٩١-٩٢].

وهكذا ينتصر الله تعالى للصادقين من عباده، كما قال تعالى: ﴿فَأَنقَضْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُهُمْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

كما سيأتي توضيحه في المبحث الرابع إن شاء الله تعالى.

ومما ينبغي أن يذكر هنا: أن قوم شعيب عليه السلام لم يكونوا كلهم كذلك، بل إن منهم طائفة قد آمنت بشعيب عليه السلام،

وصدقت في اتباعه، إلا أنهم كانوا قلة. قال تعالى على لسان شعيب: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

ثانياً: الصد عن سبيل الله تعالى:

لم يكتف قوم شعيب عليه السلام بالتكذيب والاستهزاء، إنما عمدوا إلى مسلك خبيث آخر، ألا وهو الصد عن سبيل الله تعالى، والوقوف بوجه كل من أراد الإيمان بشعيب واتباعه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦].

لقد كان منبغي قوم شعيب ومزيد تعتتهم أن لم يكتفوا بتكذيب نبيهم شعيب عليه السلام والإعراض عن قبول ما جاءهم به عن ربهم، ولم يكتفوا بالضلال الذي كانوا عليه، ولكنهم عمدوا إلى إضلال الآخرين، بل ومنعهم من الإيمان بشعيب عليه السلام، وتهديدهم بالقتل إن هم فعلوا ذلك، وهذا غاية الظلم ونهاية الإجرام، وحين علم شعيب بذلك نهاهم عن ذلك البغي بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ يعني: لا تجلسوا بكل طريق

الثاني فهو مستفاد من قوله: ﴿وَنَصَّدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَمَعُّونَهَا عَوْجًا﴾، أي: تصرفون من يريد الإيمان عن دين الله، وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة^(٤).

ثالثاً: همهم بإخراج شعيب عليه السلام ورجمه:

لقد دعا شعيب قومه إلى أعدل خطة، ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة، نقطة الانتظار والتريث والتعاشي بغير أذى، وترك كل وما اعتنق من دين، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

لكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطاغوت^(٥).

لذا لم يكتفوا بما كانوا عليه من التكذيب والاستهزاء بنبي الله شعيب عليه السلام، وإنما هموا بأمر خطير، وارتكاب أمر قبيح، ألا وهو إخراج شعيب ومن آمن به من قريتهم، لا شيء إلا أنهم لم يعبدوا الأصنام مثلهم، وهذا ديدن أهل الكبر والطغيان

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٠.
وانظر: التفسير المنير ٨/ ٢٩٣.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣١٨.

-وهو الصراط- توعدون المؤمنين بالقتل. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وكانوا، فيما ذكر، يقعدون على طريق من قصد شعيباً وأراده ليؤمن به، فيتوعدونه ويخوفونه، ويقولون: إنه كذاب^(١)!

وذكر عدة آثار تدل على ذلك منها: حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد، عن قتادة ﴿يَكْلِي صِرَاطَ تُوْعَدُونَ﴾ قال: كانوا يوعدون من أتى شعيباً وغشيه فأراد الإسلام^(٢).

وذكر ابن كثير أن شعيباً عليه السلام كان ينههم عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، بقوله ﴿وَلَا تَقْعُدُوا يَكْلِي صِرَاطَ تُوْعَدُونَ﴾، أي: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم، قال السدي وغيره: كانوا عشارين^(٣).

وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿وَلَا تَقْعُدُوا يَكْلِي صِرَاطَ تُوْعَدُونَ﴾: أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه.

قال ابن كثير: والأول أظهر، لأنه قال: ﴿يَكْلِي صِرَاطَ﴾ وهو الطريق، أما المعنى

(١) انظر: جامع البيان ١٢/ ٥٥٦.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) قوله «عشارين»: جمع عشار، وهو الذي يأخذ العشر من أموال الناس، ويسمى الضريبة، وهي التي يأخذها الماكس بغير حق.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٢٣٨، ٥/ ٣٤٩.

متى ما غلبوا في البرهان وقامت عليهم الحجة عمدوا إلى مثل هذا ﴿قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، ذاك أن وجود جماعة مسلمة في الأرض، لا تدين إلا لله، ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه، ولا تحكم في حياتها شرعاً إلا شرعه، ولا تتبع في حياتها منهجاً إلا منهجه، إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتي مواعده ^(١).

فتعجب شعيب من صنيعهم وسألهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ﴾ العود في ملتكم التي أنقذنا الله منها؟ فقالوا له: نعم، فقال: ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ أي: قد اختلقنا على الله كذباً إن دخلنا في دينكم ﴿بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا﴾ أي: بعد أن أكرمنا الله تعالى بالإسلام، وأنقذنا من ملتكم، يقال: معناه، كنا كاذبين مثلكم لو دخلنا في دينكم بعد إذ نجانا الله تعالى من ذلك ^(٢).

وهذا هو إصرار الصادقين، وثبات الموقنين، وتمسكهم بالمبدأ الذي هم عليه حتى لو كلفهم ذلك التضحية بالنفس أو الوطن أو ما يملكون.

غير أن شعيبا عليه السلام وإن كان لا يشك في أنه كان على الحق، وخصومه على الباطل، إلا أنه فوض الأمر إلى الله تعالى، فقال: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

ثم إن قوم شعيب عليه السلام لم يكتفوا بهذا التهديد، وهو الإخراج من الأرض والإبعاد عن الوطن، إنما عمدوا إلى تهديد من نوع آخر هو أشد من هذا وأنكى، فبعد أن دعاهم إلى الاستغفار والتوبة، وذكرهم بعفو الله تعالى ورحمته ولطفه بهم إن تابوا وأنبأوا ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

إنه يدعوهم ويذكرهم برفق ولين، ويحاورهم بلطف وهدوء، ولكنهم يقابلون ذلك بصلف وعناد، بعد هذا الرفق واللطف عمدوا إلى التهديد ف﴿قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

وقد تقدم بيان المراد بالضعف بأنه كان ضعيف الانتصار والقدرة، وأما الرهط فهو جماعة الرجل، والرجم إما أن يراد به الرجم بالحجارة وهو الظاهر، وإما أن يراد به السب، وسواء أريد هذا أم ذاك، فهم غير عابئين بشعيب عليه السلام، وهذا ما دلت عليه فاصلة الآية: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٥٣٣.

عاقبة قوم شعيب عليه السلام

أولاً: دعاء شعيب عليه السلام ربه عز وجل:

الدعاء سلاح ماض، وهو يمثل حاجة العبد إلى مولاه، وشدة فاقته إلى عونته ونصرته، ولأهمية الدعاء أمر به ربنا تبارك وتعالى، ووعد بإجابة الداعي حيث قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وفي الوقت نفسه حذر من ترك الدعاء، وأوعد من كان كذلك بالعقاب الأليم، لما فيه من الإعراض عن الله تعالى، وإظهار الاستغناء عنه جل وعلا، وذلك مخالف للحقيقة، ومجانِب للواقع، فقال تعالى في تمام الآية السابقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

والمراد بالعبادة هنا الدعاء، فقد أخرج ابن جرير من طريقه عن السدي، إن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ قال: عن دعائي، ومعنى: ﴿دَاخِرِينَ﴾ قال: صاغرين^(٢).

وبما أن الرسل عليهم السلام هم صفوة الخلق، وأعرفهم بربهم تبارك وتعالى، فقد كان الدعاء يدينهم في الرخاء والشدة، وفي السر والعلن، ومن جملة الدعاء الذي كانت الرسل تقول: الدعاء على أقوامهم، ولكن

أي: لست بذئ منعة وعزة ومنزلة في نفوسنا^(١).

ولكن الله تعالى الذي أرسل شعيباً قد تكفل بحفظه وحمايته، فلم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً مما هددوه به، حتى بلغ رسالة ربه على أتم وجه وأكملة.

وبعد هذا التعتن من قوم شعيب ما كان منه عليه السلام إلا أن يخوفهم مغبة ما هم عليه من الصلف والعناد، فيقول لهم بأسلوبه الهادئ الذي اتسم به: ﴿وَيَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣].

فماذا كانت النتيجة؟

هذا ما نبينه في المبحث القادم إن شاء الله تعالى.

[انظر: مدين: موقف قوم مدين من رسولهم عليه السلام]

(١) انظر: المحرر الوجيز ٧/ ٣٨٥.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره، ٢١/ ٤٠٨.

جاء بعد ما حكى الله تعالى من قول قومه:
﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

وبهذا يتسم دعاء شعيب عليه السلام
بصدق اللجوء إلى الله تعالى، وتفويض
الأمر إليه وحده جل في علاه.

ثم إنه لما فوض الأمر إلى ربه جل وعلا
ليحكم بينه وبين قومه، ويقضي بالقضاء
الفاصل، مع يقينه بأن الله تعالى عالم بما
يعمل قومه، وما هم عليه من عبادة الأصنام،
وفعل المنكرات، ومن أبشعها الصد عن
سبيل الله جل في علاه، لما كان ذلك كذلك
كان الجواب هو حكم الله العادل الذي
لا يتخلف، وهو نصره المظلومين وقمع
الظالمين، فحل بقوم شعيب ما حل بمن
سبقهم من الظالمين.

ثانيًا: إهلاك قوم شعيب عليه السلام:

بعد أن بلغ شعيب عليه السلام قومه

ذلك؛ لما فيه من التفويض ورد الأمر لله،
وذلك غاية الدعاء، ومما يؤيد هذا أن الله
تعالى قد انتصر له والله تعالى أعلم.
قال الألويسي رحمه الله تعالى في روح
المعاني ٤١٥/١ عند قوله: ﴿فَأَصِيرُوا حَتَّى
يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾: خطاب للكفار ووعيد
لهم، وقال ١١٨/١٠ عند قوله: ﴿رَبِّ أَعْلَمُ بِمَا
تَعْمَلُونَ﴾: أي: هو تعالى أعلم بأعمالكم من
الكفر والمعاصي، وبما تستوجبون عليها من
العذاب، فسيترله عليكم حسبما تستوجبون
في وقته المقدر له لا محالة.

هذا السلاح ما كانوا يستعملونه إلا بعد
أن يستنفذوا كل ما بوسعهم من النصيح
والإرشاد، والتحذير والإنذار، فيصدق فيهم
قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ
آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾
[غافر: ٥١].

وكذلك فعل شعيب عليه السلام، في
دعائه على قومه، وقد ورد دعاء شعيب عليه
السلام صراحة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾
[الأعراف: ٨٩].

والملاحظ على دعاء شعيب عليه السلام
أنه لم يصرح فيه بطلب نزول العذاب أو
حلول سخط الله تعالى على قومه، بل اتسم
بالتفويض والتوكل على الله جل في علاه،
وقد ظهر هذا التفويض والتوكل على الله
تعالى جليا أيضا فيما حكاه الله تعالى عنه
من قوله: ﴿فَأَصِيرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾
[الشعراء: ١٨٨].

والملاحظ أن الدعاء الصريح جاء بعد
ذكر من آمن من قومه ومن كفر، وموضع
التفويض الأول جاء بعد ما حكاه الله تعالى
من قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، والثاني^(١)

^(١) يلاحظ أن قوله: ﴿فَأَصِيرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ
بَيْنَنَا﴾، وقوله: ﴿رَبِّ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وإن
لم يكن بصيغة الدعاء المعروفة، إلا أنه يفيد

سبق بيانه، غير أن هذا التنوع لا يقتضي ذلك، إذ لا يمنع أن يتنوع العذاب على أمة واحدة، ولا مانع أن يكون كل ذلك في آن واحد.

وقد أثار الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى سؤالا وأجاب عنه فقال:

فإن قيل: الهلاك الذي أصاب قوم شعيب ذكر تعالى في الأعراف أنه رجفة، وذكر في هود أنه صيحة، وذكر في الشعراء أنه عذاب يوم الظلة.

فالجواب: ما قاله ابن كثير رحمه الله في تفسيره قال: وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام^(١).

وأما ابن عاشور رحمه الله تعالى فقد فصل هذه الأنواع من العذاب حيث قال: «الرجفة التي أصابت أهل مدين هي صواعق خرجت من ظلة وهي السحابة، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظَّلَّةِ﴾. وقد عبر عن الرجفة في سورة هود بالصيحة، فتعين أن تكون من نوع الأصوات المنشقة عن قالع ومقلوع، لا قارع ومقروع

(١) انظر: أضواء البيان ٣٦/٢.

رسالة ربه، وبذل جهده في نصحتهم، واجتهد في تحذيرهم وتذكيرهم، وقال لهم على طريق الإشفاق عليهم والرفق بهم: ﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمُ نُوحٍ أَوْ قَوْمُ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

وبعد أن أصرروا على التكذيب والبغي والعناد، حل بهم ما حذرهم منه، وتحققت سنة الله تعالى فيهم، فأصابهم الله تعالى بثلاثة أنواع من العذاب، وهي التي أخبرنا الله تعالى بها في كتابه الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيمِينَ﴾ [١١] الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ [١٢] [الأعراف: ٩١-٩٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِيمِينَ﴾ [١١] كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَن كَانَ بَعْدَ ثَمُودَ [١٢] [هود: ٩٤-٩٥].

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [١٨٩] [الشعراء: ١٨٩].

وهذا التنوع في العذاب (الرجفة والصيحة والظلة)، كان أحد أسباب اختلاف المفسرين رحمهم الله تعالى في كون أهل مدين وأصحاب الأيكة أمة أو امتين، كما

شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَيْرِينَ ﴿٩٢﴾ [الأعراف: ٩٢].

ويلاحظ أن الله تعالى كرر قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا﴾، وذلك لتعظيم المذلة لهم وتفضيع ما يستحقون من الجزاء على جهلهم، وأيضاً فإنهم لما قالوا: ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمُ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ﴾، يَبَيِّنُ تعالى أن الذين لم يتبعوه وخالفوه هم الخاسرون (٣).
ثالثاً: عدم تأسف شعيب على هلاك قومه:

بعد أن رأى شعيب عليه السلام ما حل بقومه، وما أصابهم من نقمة ربه تبارك وتعالى، لم يكثر بما نزل بهم، ولم يأسف عليهم، بل أعرض عنهم وتركهم ماضياً في سبيله، وهو يقول ما حكاه الله تعالى عنه: ﴿فَنَوَلُّوْا عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَّبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَیْ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ [الأعراف: ٩٣].

وهذه الآية لها دلالات عظيمة: منها: أن شعيباً عليه السلام قد أقام الحجة على قومه بتبليغ رسالة ربه، وأنه قد نصح لهم، وصبر على أذاهم وسخريتهم، وهذا النصح شأن كل رسول، فهو لا بد أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات، ولذا

وهو الزلزال، والأظهر أن يكون أصابهم زلزال وصواعق، فتكون الرجفة الزلزال، والصيحة الصاعقة، كما يدل عليه: ﴿كَانَ لَكُمْ يَغْنَوُ فِيهَا﴾ (١).

وهذا توجيه حسن، ومنه نعلم أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين كما تقدم، وإلى مثله ذهب الدكتور عبد الكريم زيدان حيث قال: فاستحقوا بكفرهم وإصرارهم الهلاك، وكان هلاكهم بأنواع العذاب: بالصيحة، وبالرجفة، وبعذاب يوم الظلة، واستشهد بالآيات الكريمة، ثم قال: وهكذا اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فرهقت أرواحهم وخمدت أجسامهم (٢).

وبهذا العذاب المدمر يكون قوم شعيب قد باءوا بالخسران الذي وصموا به شعيب عليه السلام ومن آمن معه إذ قالوا ما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمُ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ ﴿٩٠﴾ [الأعراف: ٩٠].

قال الله تعالى بعدها رداً عليهم: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا

(١) التحرير والتنوير ١٣/٩.

(٢) انظر: المستفاد ١/٢٤٧.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب ١٤/١٩٠.

عليه السلام إذ يقول: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَاتِي وَنَصَحْتُمْ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وعدم الأسى عليهم بعد الإعذار بالنصح لهم، سمة بارزة من سمات المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وقد قال الله تعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

فليس من مهماتهم نتائج ذلك التبليغ، ولذا فهم بعد أن يؤدوا ما عليهم لا يتأسفون على ما حل بأقوامهم من العذاب والنكال، وهكذا كان شعيب مع قومه، قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَاتِي وَنَصَحْتُمْ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة، سائرين إلى الله على هدي النبوة، يدعون إلى الله على بصيرة، محاسبين أنفسهم على ذلك، هل أدوا النصح كما ينبغي؟ غير ناظرين إلى نتائج ما تسفر عنه تلك الدعوة، إذ الأمر لله من قبل ومن بعد ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

كما قال الله تعالى لنبية صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ٨].

فإن نبينا صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا: (أيها الناس، إنكم مسئولون عني، فما أنتم قائلون؟) قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها عليهم، ويقول: (اللهم اشهد، اللهم اشهد) ^(١).

وفي قوله: ﴿رَسُولَاتِي﴾ بالجمع لإفادة التجدد؛ لأن كل تبليغ يتضمن رسالة بما بلغه ^(٢)، أو المراد ما أوحى إلي في الأوقات المتطاولة أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والندائر، ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء من قبله ^(٣).

ومن ذلك: أنه لا ينبغي التأسف على هلاك الظالمين، لأنهم جرائم تنخر في قلب المجتمع وتهدد استقراره، لا يصح المجتمع ولا يصلح إلا باجتماعهم، ولنتأمل موقع الحمد بعد هلاك الظالمين في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فما أجمل ما حكاه الله تعالى عن شعيب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨.

وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٥٧/٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٩٣/٨.

(٣) انظر: الكشاف ٨٦/٢.

[القصص: ٥٦].

وقال له أيضا في الموضوع ذاته: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].
ومعنى ﴿لَا تَهْدِي﴾: أي : لا تزرع الهداية في القلوب، ولا توصل إلى الإيمان المطلوب، ومعنى ﴿لَتَهْدِيَ﴾: أي : لتدل وترشد وتوضح الطريق، وبذلك يجمع ما بين الآيتين، ويزول ما قد يوهم التعارض بينهما.

[انظر: مدين: عاقبة قوم مدين]

الدروس المستفادة من قصة شعيب

وسنركز في هذا المبحث على طرف من تلك الفوائد والدرر التي اشتملت عليها هذه القصة المباركة، مراعين في ذلك ما تمس الحاجة إليه، لاسيما ما يحتاج إليه الدعاة والمرشدون ورجال التربية في أيامنا هذه، مما ينعكس على الأمة أمانا وسلاما ومحبة ووثاما، وذلك في نقاط معدودة على النحو الآتي:

١. أن التوحيد وتصحيح العقيدة أساس دعوة الأنبياء جميعا عليهم الصلاة والسلام، غير أن ذلك ليس بمعزل عن واقع الحياة، ولذا فإن شعيبا عليه السلام لم يقتصر على دعوتهم إلى التوحيد فحسب، بل أمرهم بإيفاء الكيل والوزن، وذلك لتنظيم الجانب الاجتماعي والاقتصادي في حياة الناس، والعدول عن النظام الاقتصادي القائم على الظلم والجشع، فينبغي على الدعاة والمصلحين مراعاة ذلك والاهتمام به.

٢. يعد البيان الناصع، وجودة التعبير، وحسن المنطق، وجزالة الأسلوب، وأدب الحوار، من الأمور الهامة للدعاة إلى الله تعالى، لما في ذلك من أثر فاعل في إيصال كلمة الحق إلى الناس

٥. يعد نصيح شعيب عليه السلام لقومه الدرس الأول في الاقتصاد التطبيقي من ناحية الوزن والكيل، الذي يؤثر في حياة الناس اليومية، وتعاملهم الاقتصادي والمالي والتجاري في مختلف المجالات التي تحتاج إلى إيفاء من الكيل والميزان، كي تستقيم المعاملات بين الناس^(١).

٦. للصلاة أثر كبير في تغيير سلوك الإنسان إلى الأحسن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وقد أدرك قوم شعيب ذلك، ولذا فقد: ﴿قَالُوا يَسْخِيبُ أَصْلَوَاتَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَذَرَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي آمُونَا مَا نَشْتَوِي﴾ [هود: ٨٧]. حيث لاحظوا أن تأثير الصلاة على شعيب وأتباعه قد غيرت أوضاعهم، وأدت إلى التحرر من عبادة غير الله، وترك الغش في المكايل والأوزان، فكان أن تهكموا عليه بهذا القول، لأنهم في قرارة أنفسهم لا يريدون تغيير ما هم فيه^(٢).

٧. (الشيء) في قوله تعالى: ﴿وَلَا

بأحسن طريق، كما قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَيْنِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. ويحسن مراجعة قومه سمي خطيب الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام.

٣. لقد كان الحرص على هداية الناس، وإيصالهم إلى الصراط المستقيم، وإصلاح أمورهم، واستقامة أحوالهم، من أهم مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام، وينبغي أن يتأسى بهم الدعاة المصلحون في كل عصر ومصر، وهكذا كان شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

٤. أن قليل الحلال خير وأعظم بركة من كثير الحرام، دل على هذا قوله تعالى: ﴿يَقِينُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [هود: ٨٦]. فكم جر الحرام على أصحابه من نكبات وويلات، وكم من دراهم قليلة من الحرام، أكلت كثيرا من دراهم الحلال!! ومن يقف على بعض دواعي الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالعالم هذه الأيام يدرك سر ذلك.

(١) انظر: المنهج الاقتصادي في المكايل والموازين لسبي الله شعيب عليه السلام ص ٢٠-٢١.

(٢) انظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم ص ٢٠٧.

تَبَحَّسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ [هود:]

٨٥] يشمل الأنواع الحسية من كافة معاملات الناس التي تندرج تحت اسم المكايل والأوزان، كما يشمل المعاني المعنوية من احترام الناس وتقديرهم حسب فضلهم ومعطيائهم وتضحياتهم للمجتمع، أو هضم حقوقهم المعنوية، كالعلوم والمعرفة والمهارة بالصنائع بعدم الاعتراف بها، وعدم تنزيلهم المنزلة التي يستحقونها بموجبها^(١).

٨. الهدف من تأكيد الوجوب بالإيفاء بالمكيال والميزان في المعاملات التجارية هو إقرار العدل حتى لا يتشر الفساد، وتعم الفوضى في البلاد، وتصل الأمور إلى الهاوية، ولذا فقد حذر شعيب عليه السلام قومه من الإفساد في الأرض والغش^(٢).

٩. ينبغي الترفع عن مقابلة السفهاء بمثل سفاهتهم، نلاحظ ذلك في الفرق الكبير بين خطاب قوم شعيب عليه السلام وردده عليهم، فتأمل حلمه وصبره وردده عليهم بعد طلبهم العذاب: ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

﴿الشعراء: ١٨٨﴾.

١٠. ذكر شعيب عليه السلام قومه بأنعم

- (١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٥٢٥/٨، محاسن التأويل، القاسمي ٢٠٧/٧.
(٢) انظر: أحسن القصص ص ٨٩.

الله عليهم، فقال لهم: واذكروا إذ كنتم قليلا في عددكم، فكثركم بالنسل والتوالد حتى صار عددكم كبيرا، وفي هذا إشارة إلى أن الكثرة نعمة عظيمة لما فيها من المهابة والعزة والقوة^(٣).

١١. الإيمان الصادق لا يزيد أصحابه إلا قوة وإصرارا على الحق، وكذلك كان شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه، وبه عرف الصادقون في كل زمان ومكان، على مر العصور وتعاقب الدهور.

١٢. من أهم ما يجب على الدعاة: أن يتحلوا بما يدعون إليه من الأخلاق والآداب، ويتصفوا بذلك، وهذا ما أعلن عنه شعيب عليه السلام بقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا آتَاهُكُمْ عَنْهُ﴾، وهو أمر لا بد منه لحصول النفع للمدعو، والنجاة للداعي.

١٣. المسلم يتوكل على الله تعالى في كل شؤنه وأحواله، ويستعين به، ويصبر لأمره، ويدعو الله أن يشته وينصره^(٤).

١٤. إن النجاة في الصدق، وإن مآل الكاذب الفضيحة، وعاقبته وخيمة، وللتنبه على هذه الحقيقة قال شعيب

- (٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ٦٠/٣.
(٤) المصدر السابق ٦١/٣.

لِقَوْمِهِ مَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْقَبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣].

١٥. الصد عن سبيل الله ظلم سافر، وخلل في الفكر لا يقل ضرره عن الخلل الاقتصادي، ولذا فإن شعيباً قد حذر قومه من عاقبة ذلك ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]. وقد شاهدنا في أيامنا هذه عاقبة أمثال هؤلاء سواء كانوا من أبناء جلدتنا أم من غيرنا.

١٨. لقد تحققت سنة الله في قوم شعيب عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ ١١ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢﴾ [الأعراف: ٩١-٩٢].

١٩. ينبغي عدم التأسف على هلاك الظالمين ، لأنهم معاول هدم في المجتمع تهدد أمنه واستقراره، لا يصح المجتمع ولا يصلح مع استمرار فسادهم وبغيهم، ولنتأمل موقع الحمد بعد هلاك الظالمين في قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٥ [الأنعام: ٤٥]. فما أجمل ما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام إذ يقول: ﴿فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَاقٍ وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَنَ عَلَى قَوْمٍ

١٦. مراعاة جناب الله تعالى أولى من كل شيء، وقد نبه شعيب عليه السلام قومه: ﴿قَالَ يَنْقُورِ أَهْطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي : أتركوني لأجل عشيرتي ولا تتركوني ولا تؤذوني ؛ إعظاماً لجناب الله تبارك وتعالى الذي أرسلني إليكم لتبليغكم رسالته؟ ١١

١٧. الدعاء سلاح ماض ، وقد استعمله الرسل عليهم السلام ، ولكن بعد أن استفذوا كل ما بوسعهم من النصيح والإرشاد، فصدق فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي

(١) انظر: المستفاد ١/ ٢٤٦.

كُفْرِيَت ﴿٩٣﴾ [الأعراف: ٩٣].

موضوعات ذات صلة:

إبراهيم عليه السلام، صالح عليه السلام،
موسى عليه السلام، هود عليه السلام،
النبوة، نوح عليه السلام